حول «مباحث عربية»

النظر في آراء النقاد

بقلم الدكتور بشر فارس

لا يسعني — و « المقتطف » خارج في أغسطس — إلاّ أن أشكر لطائفة من النقاد عنايتهم بكتاب «مباحث عربية». وهؤلاء النقاد هم (على ترتيب الهجاء) : الأب انستاس ماري الكرملي « المقتطف » يوليه ١٩٣٩ — ابراهيم عبد القادر المازني « البلاغ » ٢٧ / ٥ / ٣٩ و « المقتطف » يونيه ٣٩ — ادجار جلاد Le Journal d'Egypte ٢٣ / ٦ / ٣٩ — اسماعيل أحمد أدهم « الرسالة » العدد ٣١١ و ٣١٢ — بروكلمن « تكملة تاريخ الآداب العربية » ج ٣ ص ١٦٩ ليدن ١٩٣٩ — زكي محمد حسن « الاهرام » ٢٩ / ٥ / ٣٩ — سلامة موسى « البلاغ » ٢٣ / ٦ / ٣٩ — صديق شيبوب « البصير » ١٩ / ٥ / ٣٩ — كامل محمود حبيب « المقطم » ٩ / ٦ / ٩٣ — محرر الدستور الأدبي ، « الدستور » ١٠ / ٥ / ٣٩ — محرر « الهلال » يونيه ٣٩ — م . ح . ع . « الدستور » ١٨ / ٦ / ٣٩ — مراد كامل « الرسالة » العدد ٣٠٨ — وشكري للصديقين: القصصي محمود تيمور (« الرسالة » العدد ٣٠٩) والفنان زكي طليمات (« الرسالة » العدد ٣١١) . وشكري أيضاً لمن بعث اليّ برسائل رقيقة، وأخص بالذكر الاستاذ ميخائيل نعيمة من لبنان، والدكتور فيليب حتي من أميركة الشمالية ، والمستشرق ماسينيون من فرنسة والمستشرق فيشر من ألمانية

وقد ورد فيما كتب النقاد كلام لطف أيّ لطف حتى إنك تراني أنسبهُ الى سماحة الطبع تارةً ، وأعده من باب حسن الظن بالمؤلف أخرى . واهتمام النقاد — على اختلاف مشاربهم ، إذ فيهم العالم والأديب والمنشيء — بكتاب كنت أظنه يدفن يوم يخرج ، لعبوس صفحته وثقل مادته ، لأقطع دليل على ان في مصرٍ من ينشط لكتاب يجري على «أسلوب يُضجر مَن همهم من القراءة أن يتسلوا ويتلهوا ساعة لأنهُ يحوجهم بشدة إحكامه الى كد الذهن » على قول الصديق الأديب المترسل ابراهيم عبد القادر المازني

وسنمرّ بنا بجيد القارىء — على سبيل الفرض — من هذا الكتاب ، ليحسن بي أن أعرض معهُ جُمَلَ ما آخذ عليه . وإن أنا نظرت في المآخذ ، على اختلاف ألوانها ، فانما يكون هذا طلباً للدنوّ من الحقيقة ورغبة الى القارىء المهذّب في أن يرى رأيه فيها

***

أخذ عليّ العلامة الأب أنستاس ماري الكرملي استعمالي لفظة « المنضدة » بدلاً من « النضد » لأن المنضدة « لفظة لم ترد في كلام فصيح » ، والنضد « من باب تسمية الشيء بالمصدر »

والوجه ان المنضدة لا تصيبها في « لسان العرب » (ج ٤ ص ٤٣٣ وما يليها) ولا في « القاموس » مثلاً ، ففيهما : « النضد : السرير ينضد عليه المتاع » . فالأب العلامة على صواب . إلا أن المعجمات لا تحصر متن اللغة ، فضلاً عن أن باب الاشتقاق ميسور لطالبه . والمنضدة على وزن مِفعلة (بكسر الميم) تجري مجرى اسم الآلة . ثم اني يلوح لي ان استعمال لفظة النضد يورث بعض الاشتباه لأن النضد يدل على الشيء ومصدر الفعل في آن ، وفي استعمال لفظة المنضدة تقييد للمعنى ونجاة من الاشتراك

***

يسألني الدكتور مراد كامل — مدرس اللغات السامية في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول — أن « أدوّن الرموز (التي استعملها) في الطبعة الثانية على ترتيب ما ، نحو الترتيب الابجدي »

وبهذا الأسلوب الرقيق ينبهني الزميل الفاضل أنه كان ينبغي لي ان ارتب الرموز ، مع قلتها . وعليّ عهد أني سنتدارك هذا في الطبعة الثانية ان شاء ربك

***

في رأي الأستاذ صديق شيبوب ان استعمالي « النقد الباطني مقابلة للنقد الخارجي لا يتمشى وتقاليد اللغة . فقد قالوا : خارجي وداخلي ، أو ظاهري وباطني »

والحق بين يدي الأستاذ الناقد صديق شيبوب من جهة التقليد اللغوي . الاّ أن للاصطلاح الفلسفي ان ينحو نحوه ابتغاء الدقة والفرار من اللبس . وبيان هذا اني لو استعملت « الظاهري » لانصرف الذهن الى الأخذ بالـ « ظاهر » ، و « الظاهر هو اسم لكلام ظهر المراد منه للسامع بنفس الصيغة ويكون محتملاً للتأويل والتخصيص » (أطلب « التعريفات » للجرجاني ، مصر ١٢٨٣ ، كلمة « الظاهر » الأولى) . هذا على حين أني أريد « القضية التي يكون الحكم فيها على الأفراد الخارجية فقط » (اطلب « كشاف اصطلاحات الفنون » كلمة « الخارجي ») . ومن هنا تولي عند الفحص عن حديث نبوي : « واذا بدا لك أن تعدل عن النقد الخارجي critique externe

وهو النظر في الأسانيد ، الى النقد الباطني critique interne وهو النظر في الأسلوب ، فاعلم أن أسلوب هذا الحديث محض اسلامي » (مباحث عربية ص٤٢) . هذا ما يعلل إعراضي عن لفظة الظاهري . وأما انصرافي عن لفظة الداخلي ، وهي المقابلة للفظة الخارجي من باب التقليد اللغوي الى لفظة الباطني ، فسببه مخافة اللبس . وذلك لأن للفظة «الداخل» مُفادات شتى في الكلام والفلسفة (وهي : الركن والأسطقس والهيولى والاصل ، والموضوع — راجع « التعريفات » كلمة الداخل») . هذا فضلاً عن أن « الباطن » أدل على المعنى المقصود من « الداخل » في هذا التعبير : « النقد الباطني » . لأن الباطن يوجه الذهن الى ما هو داخل والى ما في الداخل من خفي ، على حين ان النقد الداخلي لا يقتضي النفاذ الى كنه الاشياء بل يقف عند ما وراء المنظور . وعلى ذلك نرى الباطني أشد إيغالاً وأعم

واذا قلتَ : لِمَ لا تستعمل كلمة « خفي » — وهي ضد كلمة « ظاهر» أيضاً على ما جاء في « التعريفات » (كلمة « الظاهر» الثانية)—قلتُ : ان كلمة « الخفي » مساقة الى اللبس ،لأن الخفاء « في اصطلاح اهل الله هو لطيفة ربانية مودعة في الروح بالقوة ... » (« التعريفات » كلمة « الخفي »). واذا اعترضت بعد هذا بقولك : ان كلمة « الباطني » مجلبة اللبس أيضاً من حيث أن « الباطنية » فرقة من فرق المسلمين (أطلب « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » للرازي مصر ١٩٣٨ ص ٧٦ وما يليها ، ثم أطلب « كشاف اصطلاحات الفنون » كلمة « الباطنية ») ، جعلت ردي أنك إن اردت النسبة الى « الباطنية » قلت : نقد الباطنية ، اي نقد الباطنية ، لا النقد الباطني أي : طلاّب الباطن (وعلى هذا « الظاهرية »)

***

عدّ الاستاذ م . ح . ع . [1] المبحث الأول من الكتاب ، وعنوانه : سلمون في فلندة « مقالاً لا يتناسب مع موضوعات الكتاب »

وهذا حق من جهة أن ذلك المبحث لا ينهض ، نحو مبحث « مكارم الاخلاق » أو « المروءة » أو « تاريخ لفظة الشرف » ، على استقراء الواقعات واستقصاء المصادر . فليس هو مبحثاً بالمعنى المتواضع عليه ، ولذلك سميته « استطلاعاً » inquiry, enquête وهو بهذا يدخل في باب « المشاهدة بمباشرة وملاقاة » (كما يقول ابن سينا) من علم الاجتماع . ولعلي جعلته رأس المباحث ، لجدّته وخلابة موضوعه مع سهولته ، مدخلاً الى فصول كالحة تأكل حواشيها متنها

(١) — محمد حسني العرابي

ثم ان الكاتب المستعرب الأستاذ اسماعيل احمد ادهم ، خريج جامعة موسكو [1] ، نشر في « الرسالة » ، بعد الدكتور مراد كامل ، نقداً مسهباً أحب أن أتمهل عنده :

ألا أني يسوءني ان اقول اني لمست فيما كتبهُ الأستاذ ادهم انحرافاً عن وجه النقد الصحيح واضطراباً في تناول المسائل العلمية ، واجتلاباً للنقد نفسه ، واستسلاماً الى آراء المستشرقين من غير تمحيص للواقعات ذاتها ، ثم تحدياً في القول . واليك تفصيل ذلك :

***

أما انحراف الناقد عن وجه النقد الصحيح ففي مثل قوله في مبحثي « مكارم الاخلاق » — وهو المنشور من قبل باللغة الفرنسية في « مجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم في رومة ١٩٣٧ بعد القائي لهُ في مؤتمر المستشرقين (سبتمبر ١٩٣٥) — : « وكان بودنا ان تناقش الباحث آراءه التي أتى بها في الموضوع ولكن المصادر اعوزتنا . لهذا صرفنا النظر عن مناقشتها . على انهُ يظهر ان الباحث وفى حقهُ من التحقيق والفحص العلمي »

هذا أسلوب من النقد لم آلفه قبل اليوم . فاما ان يناقش الناقدُ الباحثَ في مسائل واضحة معينة ، ولا يكون ذلك إلا بعد مراجعة المصادر بنظر نافذ . وإما ان يتجنب الكلام او يعرض للبحث من الناحية الموضوعية فيبين مطالبه ويجملها للقارىء دون ان يلقي في وهمه انهُ يستطيع مناقشة الباحث ولكنهُ « صرف النظر عن المناقشة » لان المصادر تعوزه . فتلك أسلوب فيه تهويل ، مما يدعو القارىء الى الارتياب في قدر البحث نفسه . افلم يكتب الناقد : « على انهُ يظهر (كذا) ان الباحث وفى حقهُ (اي الموضوع) . . . » ؟

انما وظيفة النقد تحقيق الموضوع ولا سيما اذا كان مما يتصل بالعلم الاستقرائي . وعلى هذا الوجه يستعين الباحث بالناقد على خدمة العلم الصرف

***

وأما اضطراب الناقد في تناول المسائل العلمية ففي استشهاده بفصل من كتاب « ملتقى اللغتين » للأستاذ مراد فرج (القاهرة ١٩٣٠ ج ١ ص ٩٠) . قال الناقد : « كلمة المروءة وردت في اللغة العبرية نازعة فيها معنى السيادة » ثم رجع القارىء الى : سفر دانيال ، الإصحاح ١٤ ، الآية ١٩ والواقع ان في كتاب مراد فرج ما حرفه : « مرا : فتح فكسر مال ممدود بمعنى السيد

(١) أورد الاستاذ سامي الكيالي في مجلة « الحديث » في التصدير الذي صدّر به بحث الاستاذ ادهم في « طه حسين » ١٩٣٨ ، ان الاستاذ ادهم أخذ في العلوم والفلسفة اجازتي Ph. D. و Sc. D. بدرجة شرف من جامعة موسكو سنة ١٩٣٣ وانه غنم من الجامعة نفسها اجازة Ph. D. بصفة فخرية سنة ١٩٣٨ . هذا وان الاستاذ ادهم ، كما يعلم قراء المقتطف ، يجعل تحت توقيع اسمه : « عضو أكاديمية العلوم الروسية ووكيل المعهد الروسي للدراسات الاسلامية »

وولي الأمر» . وعليه فمن اين جاءت لفظة «المروءة» ؟ ثم ان الأستاذ مراد فرج استشهد في هذا الموطن بسفر دانيال (من «العهد القديم») ، فكتب : « دانيال ١٤ — ١٩ ، والأصل العبري ١٦ ... (يريد الاصحاح ١٤ والآية ١٩ في الأصل العربي والآية ١٦ في الأصل العبري)

ومن المستحيل ان يكتب الأستاذ فرج : الاصحاح ١٤ (الرابع عشر) ، لأن سفر دانيال اثنا عشر إصحاحاً فقط . ومن هنا اتضح لي ان الاصحاح ١٤ من غلطات الطبع . فسألت زميلي الدكتور مراد كامل — مدرس اللغات السامية بكلية الآداب لجامعة فؤاد الأول — في ذلك ، فأخبرني بعد المراجعة ان الصواب هنا : الاصحاح ٤ (الرابع) والآية ١٦ و٢١

وهكذا ترى كيف جاء الاستاذ أدهم ونقل ما في كتاب فرج من غير تحقيق ولا مراجعة . والظريف انهُ استشهد بسفر دانيال أولاً ، اذ قال : « دانيال ١٤ — ١٩ ومراد فرج في ملتقى اللغتين ج ١ ص ٨٩ — ٩١ » ، كأنهُ اطلع على سفر دانيال قبل « ملتقى اللغتين » لمراد فرج

— ومما يتصل بما تقدم أن الناقد كتب عند الكلام على انساب العرب : « ولكننا على الرغم من ذلك نلاحظ جواز أن تكون القبيلة منشؤها اجتماع عدة بطون وافخاذ من قبائل مختلفة : (ابن حزم نقلا عن الفهرست ج ٣ (كذا) ص ١٨٧ . والمراجع العربية تروي ان قبائل تنوخ وغسان والعتق تكونت من شتيت البطون التي تناثرت في الصحراء من القبائل العربية التي تفرقت بعد تركها مواطنها في الجنوب : الفهرست ج ٣ (كذا) ص ١٨٧ وكذلك لنا (يعني كتاباً لهُ) علم الأنساب العربية ص١٣ — ١٤ »

على هذا النحو ترى الجزء الثالث (؟) من « الفهرست » لابن النديم يُثبت مرتين على سبيل المرجع . وليس للأستاذ أدهم أن يستنجد بغلط الطبع ، إذ في كتابهِ المستشهد بهِ ايضاً « علم الأنساب العربية » (طبعة مجلة الحديث، حلب ١٩٣٨، ص ١٤) ما جاء في نقده حرفاً بحرف

هذا والمعلوم ان « الفهرست » لابن النديم طبع مرتين : مرة في ليبزج Leipzig سنة ١٨٧٢ ومرة في مصر سنة ١٣٤٨ هـ . وفي كلتا المرتين خرج « الفهرست » في جزء واحد . والذي حدث في هذا الموطن أن الاستاذ ادهم اقتبس المرجع الى « الفهرست » من كتاب من الكتب الحديثة من غير ان يراجع المظنة (شأنهُ مع «سفر دانيال»)، ولو راجعها لعلم أن الكلام على الأنساب يقع في « المقالة الثالثة » (« الفن الأول : في أخبار الاخباريين والنسابين ... ») من كتاب الفهرست لا في « الجزء الثالث » منهُ . ومن هنا يتبين انهُ ظن المقالة جزءاً لحظة اقتبس المرجع ، وأما الصفحة التي يعينها (ص ١٨٧) فلا أثر فيها لما يذكره . بل اني قرأت « الفن الأول » من « الجزء الثالث » كله (طبعة مصر) ولم أعثر على حديث الناقد

وأما قوله في مرجعه : « ابن حزم نقلاً عن الفهرست ... » فغاية الاشتباه . لأنهُ اذا

قال ابن حزم من غير تعيين اراد صاحب « الفصل في الملل والأهواء والنحل » المولود سنة ٣٨٣ (والفهرست صنف سنة ٣٧٧) . ولابن حزم ستة وثلاثون مؤلفاً (راجع : بروكلن « تكملة تاريخ الآداب العربية » ليدن ١٩٣٧ ج ١ ص ٦٩٤ — ٦٩٧) . وعليه فلنا ان نسأل الناقد اي كتاب لابن حزم يعني . ثم اني اعلم أن لابن حزم كتاباً لا يزال مخطوطاً عنوانه : « جمهرة النسب » وقد نشر جانباً منهُ Khuda Bukhsh في كتابه Contributions to the Hist. of Isl. Civili... كلكته ١٩٠٥ ص 1 الى XXXV . فهل يعني الأستاذ ادهم ذلك المخطوط ؟ واذن فاين اسم الكتاب وابن الصفحة كما يصنع الناقد الثبت والباحث الثقة ؟ (١)

وخاتمة القول : أين الجزء الثالث في الفهرست ، وأين النص المستشهد به في ص١٨٧ ؛ بل في الفن الاول من المقالة الثالثة من الفهرست ؟ ثم من ابن حزم هذا وما كتابه ؟

— ومن الاضطراب أيضاً أن يقول الناقد : « ويرى (يعني) للعرب صلات اجتماعية في حدود الحي والقبيلة . وفكرة البحث وجيهة ؛ ولكن ما رأيه في كون التحاق العربي بقبيلته او حيه مظهر (كذا) من الاصل الطوطمي totemism عند العرب القدماء ، والطوطمية مصدرها فردية صرفة »

والرد ان الطوطمية جماعية صرفة ، كما قرر ذلك علماء الاجتماع . واليك دليلاً ما كتبهُ (دوركايم) Durkheim صاحب مدرسة علم الاجتماع في فرنسة لهذا الزمان : « أن نوع الاشياء الذي يعين الحي من طريق جماعي collectivement يسمى : طوطم . وطوطم الحي هو طوطم كل فرد من افراده » (اطلب Les Formes élementaires de la Vie Religieuse باريس ١٩٢٥ ص ١٤٣) . وعلى هذا ما جاء في دائرة المعارف البريطانية (الطبعة ١٤ ، كلمة Totemism) : « الطوطمية خاصة اصلية هي ارتباط جماعات من الناس بجماعات من الحيوانات او الاشياء ، لا ارتباط افراد من الناس بحيوانات مفردة . وهذا الارتباط الاخير ظاهرة شائعة لا يستحسن أن تطوى تحت الطوطمية »

***

واما اجتلاب الاستاذ ادهم النقد فيّن عند كلامه على طائفة المسلمين الذين اهتديت اليهم في فنلندة سنة ١٩٣٤ ، وهم من الترك — التتر الضاربين أصلاً فيما وراء جبال اورال . وقد دونت أنهم هجروا الى الشمال وحلوا بفنلندة عقب الثورة البلشفية في روسية

---

(١) وهنا يذكرني ان بالاستاذ أدهم ميلا الى ارتجال المراجع . من ذلك ما جرى على قلمه في مجلة الرسالة (العدد ٢١٣ ص ١٣٣١) : « قد تكررت جملة كذا في كتابات العالم الاجتماعي دوركايم Durkheim وخصوصاً في مجموعة محاضراته عن علم الاجتماع في السوربون (ص ١١ و١٣ و٢٤ و٢٦ مثلا) » فما هذه « المجموعة » ؟ راجع ما كتبته في الرسالة العدد ٢١٤ « باب رسالة النقد » ص ١٣٧٩

على أن الناقد يقول : « ونحن نعرف ان المصادر التركية تتحدث عن رحلة جموع من الأتراك المسلمين الى الشمال في القرن السادس عشر للميلاد وأنهم نزلوا بلاد (الفنوا) . فهل تحقق الباحث من ان مسلمي فنلندة الذين شاهدهم عن كثب ليسوا من نسل هؤلاء ؟ وان توهم بأنهم اتوا فنلندة عقب الثورة الاشتراكية الكبرى في روسيا حقيقة تخلو من الريب ؟ »

والرد ان هؤلاء المسلمين الذين احتدثت اليهم في فنلندة خبروني بما دونته ، وقد أيد موظفو الحكومة الفنلندية ما خبرني به القوم ، وصاحب الدار أدرى بالذي فيها . وليس لي ان اشك فيما قاله هؤلاء الموظفون واولئك المسلمون ، اذ لا داعي الى الكذب ، واذ الهجرة قريبة العهد (خمس عشرة سنة) فكيف تُلفّق ؟ والذي يُخيّل اليَّ ان الاستاذ أدهم — خريج جامعة موسكو — يريد ان يجعلنا نرتاب في ان نفراً من الناس بل من المسلمين يخطر لهم ان يفروا من الثورة البلشفية (او الثورة الاشتراكية الكبرى ، كما يسميها)

— ومن اجتلاب النقد ايضاً قول الأستاذ ادهم اني كتبت أن هؤلاء المسلمين يقيمون في مدن ، منها مدينة « توركو » ولم اذكر ماصلة هذه المدينة بلفظة « ترك » . وفي رأيه ان هؤلاء المسلمين لم يستطيعوا ان يخلعوا اسماً مشتقاً من جماعتهم (يعني لفظة ترك) على تلك المدينة لأنهم لم يقيموا بها سوى خمس عشرة سنة ولأنهم أقلية ، وعليه « فللموضوع شأن اعمق من القول بأن هؤلاء من الذين نزلوا فنلندة بعد الثورة البلشفية في روسية » . وبهذه الجملة يعود الناقد الى حمل القارىء على الارتياب في تاريخ هجرة اولئك المسلمين ، فيصرف ذهنه الى جماعة الترك الذين رحلوا الى فنلندة في « القرن السادس عشر »

والرد ان مدينة « توركو » عيّدت ، سنة ١٩٢٩ ، انقضاء سبعمائة سنة على انشائها (راجع « دائرة المعارف البريطانية » الطبعة ١٤ كلمة Turku) ثم أن « توركو » هو الاسم الفنلندي الصميم للمدينة (واسمها الأسوجي : آبو Abo ، وقد أحله الفنلنديون الآن تعصباً لقوميتهم) . وكانت « توركو » عاصمة فنلندة في المائة الرابعة عشرة للمسيح ، وفيها كان مقر الاسقف وقيام الحكم (اطلب La Ficlande بقلم J.—L Perret باريس ١٩٣١ ص ١٥ ثم Hist. des Pays Baltiques بقلم Meuvret باريس ١٩٣٤ ص ٧٢) . والمائة الرابعة عشرة للميلاد قبل « القرن السادس عشر له » . فلا تأثير أذن لجماعة الترك الذين ذكرهم الناقد في اسم مدينة « توركو »

— ومن اجتلاب النقد ايضاً أن الناقد يقول في بحثي عن اولئك المسلمين « اني لم اتعمق في البحث » وحجته اني كتبت ان حروف هجائهم هي الحروف اللاتينية — التركية التي وُضعت وشاعت بأمر اتاتورك ، فلم اتثبت من ان هذه الحروف هي التي « توافق عليها اتراك آسيا الوسطى والقوقاز والاورال في مؤتمر تفليس عام ١٩٢٥ »

وهنا اقول دفعة اخرى : ان هؤلاء المسلمين خبروني بما دونته ، فضلاً عن انهم صرفوا هواهم عن روسية الى انقرة ، كما جاء في بحثي (ص ٢٣) ، وذلك بغضاً للبلشفية واصحابها . والعهدة في ذلك عليّ

[هذا وإن منطق الاستاذ ادهم في هذا الاعتراض والذي سبقهُ يذكرني بمنطقه في اثبات تاريخ ميلاد صديقي الاستاذ توفيق الحكيم . فقد عين الاستاذ الحكيم لأدهم مولده ولكن الأستاذ ادهم أبى الاّ ان يسلب صديقي خمس سنوات من عمره ، وذلك على طريقته الخاصة في الاستدلال . اسمعهُ يقول : «هنالك خلاف جوهري بيني وبين الاستاذ توفيق الحكيم بخصوص تاريخ ميلاده ، فهو يقول انهُ ولد عام ١٨٩٨ في خطاب بعثه الينا ولكن هذا التاريخ لا يتفق مع هيكل التحقيقات (كذا) التي قمنا بها . . . . وعلى هذا يكون ميلاد الاستاذ الحكيم اواخر سنة ١٩٠٣ (صيف عام ١٩٠٣) ؛ اما انهُ مولود في الصيف فهذا محض استنتاج من مجرى تاريخ حياته حيث افترض ان والديه ذهبا للاسكندرية لقضاء اشهر الصيف ، فوضعته والدته بالاسكندرية» راجع هذه القصة الفريدة في مجلة الحديث ، حلب ١٩٣٩ ص ٣٣٢ المتن والحاشية رقم ٨٢٧ .]

— ومن اجتلاب النقد ايضاً ان الناقد يقول اني «اعتبر كلمة البصيرة مقابلاً لكلمة intuition (يريد ناظرة اليها) في ص ٥٧ (من كتابي) » على حين ان «المرجع عنده لفظة الحدس لأنها فلسفيًّا كما جرت على اقلام فلاسفة العرب كابن سينا والفارابي تفيد معنى الانتقال دفعة واحدة من المبادىء الى النتائج ، وهذا ما يفيده معنى لفظة intuition اصطلاحيًّا ولغويًّا كما يستفاد من مراجعة معاجم اللغة الفرنسية»

والرد اني لم اثبت كلمة «البصيرة» ازاء كلمة intuition في ص ٥٧ من كتابي ولا في صفحة غيرها ، فمن اين جاء بها الناقد وكيف يجعلني «اعتبر» ما يجهل هل انا «اعتبره» ؟ انه يحملني هذا لينساق الى الكلام على «البصيرة» و«الحدس» فيذيع علمه الغزير ، دون ان يخرج نصًّا لأحد من فلاسفة العرب . واليه نصًّا صريحاً للغزالي : «الحدس وهو سرعة الانتقال من معلوم الى معلوم...» («تهافت الفلاسفة» بيروت ١٩٢٧ طبعة Bouyges ص ٢٧٣ . ثم ليراجع لفظة الحدس في «كتاب الاشارات» و«النجاة» لابن سينا : Goichon, Introduction à Avicenne باريس ١٩٣٣ ص ٣٦ التعليقات) . ومما يفيد «الحدس» فان الناقد يرى ان كلمة intuition تفيد أيضاً الانتقال دفعة واحدة من المبادىء الى النتائج (ولعله يريد «الى المطالب» : كما جاء في «التعريفات» و«كشاف اصطلاحات الفنون») ؛ وذلك «اصطلاحيًّا ولغويًّا كما يستفاد من مراجعة معاجم اللغة الفرنسية »

وهنا أحب ان أدعو الناقد الى مراجعة معجمات الفلسفة ، نحو «المعجم الاصطلاحي والنقدي للفلسفة» (ج ١ ص ٣٩٦ — ٤٠٢) وصاحبه الاستاذ لالند Lalande وعليه أخذت في المنطق في

المربون . فلعل الناقد يرى ان مدلول كلمة intuition يذهب الى أبعد مما يظن . وذلك لان المصطلحات الفلسفية لاتصاب على وجوهها التامة في « معاجم اللغة » كما يقول الناقد . أضف الى هذا ان لفظة « البصيرة » ولفظة intuition متفقتان من حيث الاشتقاق اللغوي (راجع «البصيرة» في «كشاف اصطلاحات الفنون» فوازن بينها وبين مدلول intuition عند Bergson خاصة) . ولا أريد ان أعرض لهذا المطلب ، فانهُ يخرجنا مما نحن فيه

***

واما استسلام الناقد الى آراء المستشرقين من غير تمحيص للواقعات نفسها ، فأقطع دليل على هذا ما كتبهُ : « على هذا التفسير يسير اعلام الاستشراق في أوربا » يريد تفسير لفظة المروءة . ذلك التفسير الذي اظنني دفعتهُ دفعاً في مبحث لي نشرتهُ من سنتين دائرة المعارف الاسلامية التي يخرجها « أعلام الاستشراق » في اوربة

وعلى هذا النحو من التثبت يردد الناقد أقوال المستشرق جولدتسيهر ، وهي أقوال تصعد الى سنة ١٨٨٩ ، في نقده لمبحثي في المروءة . والغريب انهُ يعتمد على ما ذهب اليه جولدتسيهر في هذا الباب ، على حين اني عقدت فصلاً كاملاً في البحث لأدفع مذهب جولدتسيهر وبين يدي الحجج المستخرجة من النصوص الصريحة لا المنتزعة من الذهن تخيلاً وارتجالاً او المنقولة من كتب الفرنجة . وكل ما صنعهُ الناقد انهُ قال : « ان تساؤل معاوية عن معنى المروءة لايدل على التباس معنى اللفظة لأن مثل هذه الاسئلة التي ترد في كتب الادب واللغة منحولة لاغراض واضحة ظاهرة »

فان صح قول الناقد فما رأيه في النصوص الأخرى التي اتيتها أو رجعت القارىء الى مظانها وهي كثيرة ، بدليل ان الناقد نفسه يقول : « في هذا المبحث (اي مبحث المروءة) يبرز الباحث رجلاً مدققاً عرض للموضوع في احاطة تحية » . ما رأي الناقد مثلاً في كلمة ابي حاتم البستي : « اختلف الناس في كيفية المروءة » والبستي ، بهذه الكلمة ، يصرح بتضارب التعريفات للفظة المروءة وتباين الأقوال فيها (راجع «مباحث عربية» ص ٦٠) . والبستي هذا اقرب الى العصور الاسلامية من المستشرقين وما ، فقد توفي سنة ٣٥٤ هـ . ثم ان اختلاف الناس في كيفية المروءة دليل على التباس هذه اللفظة

واما قول الناقد بأن المروءة تنزع في اللغة العبرية الى معنى السيادة ، مستخرجاً ذلك من كتاب مراد فرج ، على ما تقدم ، فمدفوع أساساً . ذلك ان مراد فرج نفسه يقول : ان اصل « مرا » العبرية (ولم يذكر المروءة البتة) آرامي . وفي مبحثي في المروءة فصل أرد فيه

الاستاد الى مادة « م ر ا » الآرامية في سبيل الذهاب — من طريق ذلك الاستناد — الى ان لفظة «مرء» العربية تفيد السيادة . وقد أهمل الناقد ما قاله الأستاذ فرج، في كتابه «ملتقى اللغتين»، في اصل كلمة «مرأة» ، مغالطة

— ومن استسلام الناقد الى آراء المستشرقين انه يعول على كتاب Robertson Smith وعنوانه Kinship and Marriage in Early Arabia في «كون التحاق العربي بشيء اوحيه مظهر (كذا) من الأصل الطوطمي»

على ان كتاب Smith في هذا الباب لا يحتج به اليوم (راجع مثلاً ما دونته في رسالتي «المرض عند عرب الجاهلية» باريس ١٩٣٢ ص ١٩ من «ثبت المصادر»)

— وهنا اذكر انا اصبحنا ندير النظر في كل ما يذهب اليه المستشرقون ، سواء بالرجوع الى الاصول والفحص عن المصادر الاولى أو بعقب التبين والاستدلال . اذ قد مضى الزمن الذي فيه كنا نأخذ العلم عنهم اخذاً نؤمن بكل ما يقولون به . والرأي ان نقتبس من مناهجهم ونفيد بما يؤلفون مع استقلالنا بأقلامنا وبصائرنا : العلم لا يستأثر به ، والعربية وفنونها من تراثنا

***

وأما تحدي الناقد في القول فيدخل تحته كل ما اخذ عليَّ في باب اللغة . من ذلك انه يرى — بعد الاستاذ صديق شيبوب، دون ان يذكره — ان تعبيري: النقد الخارجي والنقد الباطني «ضعيف من جهة السياقة العربية اللغوية الخالصة» . وقد مرَّ ردي على هذا الاعتراض

ومن ذلك أيضاً انه يرى ان استعمالي لفظ «السلوك» لأحد مشتقات المصدر الفرنسي (وهو moralité) تارةً ، ولفظ (الاخلاقيات) لمشتق آخر لنفس المصدر (وهو morale بمعنى éthique) تارة اخرى «يوقع في اللبس والاختلاط»

والرد ان الناقد لم يدرك الفرق الذي بين اللفظين الفرنسيين : moralité و morale (راجع مباحث عربية ص٣٦و٥٦) ، فالأول يدل على اعمال المرء من الناحية الاخلاقية ، والثاني يفيد علم الاخلاق . وحسب الناقد ان يستفسر معجماً فرنسيًّا للمدارس ذينك اللفظين

— ومن ذلك أيضاً انهُ يرى ان قولي : «ان للفظة الشرف مفادات متجاورة تارة ، متباينة اخرى» مما «فيه قصور واضح في التعبير العربي فضلاً عن ان التعبير غير مستقيم من جهة البناء النحوي العربي» (اين البناء غير المستقيم؟) وحجته في هذا ان «في هذا التعبير لفظة التجاور تفيد الفرنجيَّا معنى synonyme ، ولكي تتسق مفادات العبارة لا بد من ابدال لفظة المتجاورة من الجملة بالمتشابهة لأنها ادل على المعنى واكثر اتساقاً في الجملة»

وهنا لا اريد ان اطيل الرد ، لاطمئناني الى ان القارىء العربي يفطن بسليقته أين وجه الصواب (وكلمة synonyme في الافرنجية هي الألفاظ المفردة الدالة على معنى واحد ارتقاريب) وليأذن لي الدكتور أدهم في ان ارشده الى كتب اللغة العربية ليتبين ان معنى synonyme تؤديه في العربية الفصحى لفظة « المترادف » . واليه مثلا فصلا قريب المثال في « المزهر » للسيوطي (النوع السابع والعشرون) . وأما « المفادات المتجاورة » فهي المتجاورة voisines في الفرنسية ، وأما المتشابهة فغير المترادفة . وبين هذه الألفاظ من الدقائق ما يشق على غير العربي أن يحس به

ـــ ويدخل فيما تقدم ما رآه الناقد في كلمة « الاسلوب » وما كتبهُ في شأن « المشاهدة والتخيل » . والله لا ادري ما الذي استدرج الناقد الى باب النقد في اللغة ، وهو الذي لا يزال يأخذ لغتنا عنا . ألا تسمعهُ يقول (مجلة الرسالة العدد ٣١٣ ص ١٣٣١ ، وهو يريد الاعتذار من اقتباس تعبيرات لي[1]) : « اني حين اكتب بالعربية فانا اكتب بلغة غير لغتي الاصلية ، ومن هنا بعض ما يجيء على قلمي من التعابير الخاصة لكتّاب اليوم استدراكاً للمعنى الذي في ذهني من تعابيرهم » .

***

تلك هي مآخذ الاستاذ أدهم على « مباحث عربية » . وما تمهلت عندها الاّ ارادة ان تستقيم موازين النقد في بلدنا ، ورجاء أن يفطن من يفد علينا من المتصرفين الى النقد انا ندري ما أساليب العلم الحق ، وانا لا يأخذنا القول بالظن ولا الكلام المتحدّي ولا الجدال المتحكم ولا التظاهر بالدراية والتثبت ، وان قال الناقد ، غير متهيب ولا متردد ، انهُ « أكثر الكاتبين في العربية استقصاء للمصادر » . (مجلة الرسالة العدد ٣١١ ص ١٢٢٥) .

ألا انا نطلب في مصر النقد الذي تمده الرغبة الصحيحة في خدمة العلم ، والعلم عندنا أمسى شيئاً مقدساً له سدنتهُ وله حرّاسه . والنقد للعلم مصباح على ان يكون الزيت لا دخل فيه

بشر فارس
دكتور في الآداب من السربون

(١) اقتبس الاستاذ ادهم جملا تارة برمتها واخرى محرفة من ترجمة مسرحيتي « مفرق الطريق » المنشورة في مقتطف مارس ١٩٣٨ ثم من بحث لي في مذهب الرمزي منشور في مجلة الرسالة العدد ٢٥١ والظريف انه استعمل هذه الجمل المقتبسة مني لدرس مذهب توفيق الحكيم في الرمزية . وهذه طريقة في التطبيق في النقد الادبي جديدة (راجع كل هذا في مجلة « الرسالة » العدد ٣١٢ البريد الادبي « في اقتباس الكتاب » والعدد ٣١٤)

حول مقال التعقيم

كتب الدكتور شريف عسيران في عدد المقتطف لشهر يوليو عن التعقيم بين انصاره ومعارضيه افتتحهُ بتعريفهِ لغويًّا ثم قال (وكان الملوك والخلفاء يعقمون الرجال الذين يستخدمونهم بسل خصاهم فيزول عنهم الميل الجنسي) ثم أشار في الهامش إلى حكاية تؤيد هذا فقال (يقال هو أعقل من خاصي الخنثين وهو مثل أصله أن جماعة من الخنثين كانوا في المدينة في عهد سليمان بن عبد الملك الأموي فأراد أن ينفيهم منها فكتب إلى عامله فيها أبي بكر عمر بن حزم احص من عندك من الخنثين فاتفق أن نقطة من السطر الأعلى وقعت فوق الحاء فخصاهم)

وليست صحة الرواية كما روى الكاتب الفاضل فهو قد أوفى بحثهُ من الناحية الطبية لذا لزم أن نصحح ما ليس من اختصاص الطبيب بل من أبحاث الأديب

فقد حكى الجاحظ في باب (مساوي شدة الغيرة والعقوبة عليها) من كتابه (المحاسن والاضداد) ما نصّهُ:

(حكي عن سليمان بن عبدالملك أنهُ كان في بعض اسفاره فسمر معهُ قوم فلما تفرقوا عنهُ دعا بوضوء فجاءت بهِ جارية فبينا هي تصب الماء على يده اذ استمدها وأشار اليها مرّتين أو ثلاثاً فلم تصب عليهِ فأنكر ذلك ورفع رأسهُ فإذا هي مصغية بسمعها مائلة بجسدها الى صوت غناء من ناحية العسكر فأمرها فتنحت فسمع الصوت فإذا رجل يغني فأنصت لهُ حتى فهم ما غنى فدعا بجارية غيرها فتوضأ فلما أصبح أذن للناس فأجرى ذكر الغناء فلم يزل يخوض فيهِ حتى ظن القوم أنهُ يشتهيهِ فأفاضوا فيه وذكروا ما جاء في الغناء والتسهيل لمن سمعهُ وذكروا من كان يسمعه من سروات الناس فقال هل بقي أحد يسمع منهُ فقال رجل من القوم عندي رجلان من أهل الأبلّة محكمان قال فأين منزلك من العسكر فأومأ إلى ناحية الغناء فقال سليمان ابعث اليهما فعل فوجد الرسول أحدهما وأقبل به وكان اسمهُ سمير فسأله عن الغناء وكيف هو فيهِ قال محكم قال متى عهدك بهِ قال البارحة قال وفي أي النواحي كنت؟ فذكر الناحية التي سمع منها الصوت قال وما اسم صاحبك قال سنان قال: فأقبل سليمان على القوم فقال هدر الفحل فضبعت الناقة ونبّ التيس فشكرت الشاة وهدل الحمام فزافت الحمامة وغنّى الرجل فطربت المرأة — . ثم أمر بهِ فخصي وسأل عن الغناء أين اصله قالوا بالمدينة وهم الخنثون فكتب الى عامله أن أخص من قبلك من الخنثين) وتلك هي الرواية المعقولة لا ما نقله الدكتور عن البستاني

وحدث الاصمعي ان الشعر الذي سمعه سليمان يغنى به هو:

محجوبةٌ سمعتْ صوتي فأرّقها ... من آخر الليل لما بلّها السحَرُ
تُدنّي على الخدّ منها من مُعصفرةٍ ... والحَليُ بادٍ على لبّاتها خَصِرُ

في ليلة البدر ما يدري مُعاجمُها أوجهُها عنده أبهى أم القمر
لم يمنع الصوت ابوابٌ ولا حرسٌ فدمعها لطروق الحزن ينحدر
لو تستطيع مشت تجري على قدم تكادُ من رقّةٍ في المشي تنفطرُ

ثم دخل سليمان مضرب الخدم فوجد جارية على هذه الصفة قاعدة تبكي فوجه إلى سنان فأحضره ووجهت الجارية رسولاً إلى سنان يحذره وجعلت للرسول عشرة آلاف درهم إن سبق رسول سليمان فلما حضر انشأ يقول:

استبقني الى الصباح أعتذرْ إنّ لساني بالشراب منكسرْ
فأرسل المعروف في قوم نُكُرْ

فأمر به فخُصي وكان بعد ذلك يسمى الخصي — ولعلنا نكون بذلك قد أوفينا الغاية تفصيلاً من هذه القصة كما أوفيناها تحقيقاً في الرواية وقد أثبتت ان صحة امر الخليفة الى عامله بالمدينة كان بخصيهم لا باحصائهم وأما المثل (هو أغتل من خاصي الخنثين) فليس مراداً به الوالي بل الخليفة نفسه فانّ النقطة لم تقع اتفاقاً كما يقول الباحث الفاضل ، بل الرواية رويت خطأ كما نقلها البستاني بدون تحقيق . ونقلها عنهُ الدكتور بدون مراجعة

دمنهور عبد الحفيظ نصار

ذيل

لمقال الدكتور بشر

جمع مقال الدكتور بشر فارس (حول مباحث عربية) ومثل الجانب الاول منهُ للطبع في الثلث الاول من الشهر (يوليو ١٩٣٩) لاعتزام الدكتور السفر الى اوربا . ثم صدرت مجلة الرسالة الغراء بتاريخ ١٠ يوليو — وهي ميدان المناقشة الاصيل — وفيها مقالٌ بقلم الدكتور بشر فارس انطوى على أهمّ ما جاء في قصله المنشور في هذا الجزء من المقتطف خاصّاً بالردّ على الدكتور اسماعيل احمد أدهم . فاقتضى التنويه

***

ثم جاءنا من الدكتور بشر من الاسكندرية ليلة سفره ان ما اشار اليه في مقاله من ان الدكتور أدهم أخذ عن الاستاذ صديق شيبوب فكرة النقد الخاص بلفظي الباطني والخارجي (راجع ص ٣٦٦ سطر ١٤ من هذا الجزء من المقتطف) ليس قرين الصواب لأن الدكتور أدهم كان أسبق الى الاشارة الى هذه المسألة من الاستاذ صديق . ولما كان المقال قد طبع عند ورود هذه الكلمة في ١٣ يوليو رأينا إنصافاً للدكتور أدهم وللدكتور بشر أن نوردها هنا